Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

شخصية ابن هشام

كان ابن هشام عظيمًا فى نفسه، معتزًا بكرامته، ذا شمم وإباء، مترفعًا عما ارتضاه سواه، لم يؤثر عنه أنه تهالك على دنيا، أو ترامى فى أحضان أمير بل لقد كان زاهدًا فى زهرة الدنيا معرضًا عن زينتها، قانعًا بالكفاف من مال الله الذى آتاه، يفسر لنا هذا عزوفه عن جمع المال، ولو «أراد ثراء كان له وفر».

ولكن الرجل صان كرامة العلم وترفع عما اتصف به بعض معاصريه من ركض فى أعقاب دُنيا يصيبها من وراء تكسبه بالعلم.

قال ابن حجر، فى كتابه «أنباء الغمر بأبناء العمر» فى ترجمة الشيخ شمس الدين السيوطى، وهو غير السيوطى المشهور: «كان عالمًا بالعربية ماهرًا فيها حسن التعليم لها عارفًا بعدة فنون، انتفع به جماعة، وكان يعلم بالأجرة ويقرىء كل بيت من الألفية بدرهم، وله فى ذلك وقائع عجيبة، تنبىء عن دناءة شديدة وشح مفرط» (١).

ومن متكسبى القدامى مبرمان المتوفى «سنة ٣٤٥ هجرية» كان لا يقرىء كتاب سيبويه إلا بمائة دينار، وله حكاية طريفة مع ابن هاشم الجبائى» (٢).

ولقد طبقت شهرة ابن هشام الآفاق، وسارت بذكره الركبان، ولم تقع العين منه على مغمز له فى صدر مؤلف من كتبه.

وليس غريبًا على رجل من سلالة الأنصار أن يكون عزوفًا عيوفًا، فهو فرع دوحة عربية عريقة فى المجد «وهل ينبت الخطى إلا وشيجه».

أجمع المؤرخون على أن ابن هشام كان عف اللسان رقيق القلب، متواضعًا حليمًا برًا كريمًا، على خلق عظيم، وكان لهذا أبلغ الأثر فى كتابته؛ فقد ظهرت مؤلفاته مبرأة مما يشبه المهاترة فلا تراه فى مناقشاته يسفه رأيًا، أو يذكر لفظًا نابيًا، أو يقسو فى تعقيبه، وإنما أخذ نفسه بالأدب الجم ينفق منه فى مقارعة الحجة ودفع الشبهة ودرء الخطأ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، دون تشف، أو

(١) بغية الوعاة ص ٣٧ .

(٢) بغية الوعاة ص ٧٤ ـ ٨٧ .